المحاضرة السابعة :

ثورات القرن السادس عشر ميلادي

I. ثورة سالم التومي

II. ثورة السويد

ثورات القرن الســـادس عشر ميلادي- ١٦ م –

I. ثـورة سـلـيم التـومــي

عندما سقطت مدينة بجاية تحت قبضة الإسبان يوم ٦ جانفي ١٥١٠ ، ذهب "سليم التومي" حاكم مدينة الجزائر إلى بجاية لإعلان ولائه للقائد الإسباني "بيدرونافارو" وإشترط هذا الأخير على سليم التومي دفع ضريبة باهضة و إطلاق سراح كل العبيد المسيحيين الأسرى في يد سكان المدينة ، ومن جهة أخرى فرض بناء قلعة على تلال الجزر المقابلة لمدينة الجزائر و التي أصبحت تُعرف ب" البينيونEl peñon" نسبة للصخور الصلبة التي بنيت فوقها .[i] بُنيت القلعة على شكل مُثمن وحُصّنت بحصنين و كان يربض فيها حوالي ٢٠٠ جندي إسباني . كان موقع البينيون قريبا من مدينة الجزائر بحيث أن طلقات الأسلحة النارية تصل اليابسة و أن طلقات المدفعية تمر فوق المدينة من سور إلى أخر. ومهمة هذا الحصن هي مراقبة كل ما يجري من تحركات في البحر دون إنقطاع و منع القراصنة من إستعمال الميناء كملجأ . وبحسب أحد الأقوال الشعبية أنذاك كانت البينيون شوكة في قلب كل جزائري للتخلص من هذه القلعة و نقض المعاهدة المجحفة مع الإسبان ، فكر "سليم التومي" في الإخوة بربروس الذين كانوا يسيطرون على ميناء جيجل ، و أعتقد أنهم أفضل من يساعده على تهديم القلعة [ii]

أولا : إتفاقية سليم التومي مع "عروج"

أوفد سكان مدينة الجزائر عدة شخصيات بارزة لإقناع عائلة بربروس لمساعدتهم على القضاء على قلعة البينيون و الجنود الإسبان الموجودين فيها. يقول المؤرخ الأمريكي " وليم سبنسر": "وقد عُقدت إتفاقية بين سكان المدينة و حاميهم الجديد تحدد بمقتضاها أن تُحترم سيادة مدينتهم و أن لا يخضعوا لدفع أية أتاوة جديدة و لا لأي تدخل في تجارتهم و أن تكون مساعدة عروج مقصورة على إسترجاع صخرة (البينيون)"[iii]

يقول هاييدو " وقبلت عائلة بربروس هذا الطلب و رأت في ذلك فرصة للإستيلاء على مدينة الجزائر الهامة و الغنية جدا و المأهولة بالسكان و خاصة كونها مريحة

و مناسبة لعمليات القرصنة ،سار عروج و إخوته بسفنهم و جيشهم نحو مدينة الجزائر و قبل أن يقوموا بمهاجمة قلعة "البينيون" ، شنوا حملة على شرشال و طردوا منها القرصان "كارا حسن" الذي كان منافسا لعروج .

ثانيا : سكان الجزائر ينتفضون ضد عروج و جيشه

عندما وصل عروج إلى مدينة الجزائر باشر بحفر خندق و نصب مدفعيته مقابل القلعة و بدأ هجومه عليها . غير أن ضعف مدفعيته منعته من تحقيق نتائج مُرضية، وبعد عشرين يوما بدأ سكان مدينة الجزائر يضيقون ذرعا من تصرفات جنود عروج . يقول هاييدو " ولم يتحمّل سكان المدينة تصرفات الأتراك[iv]، ويضيف وليم سبنسر "و لما رأى سليم التومي أن حكمه قد ذهب انسحب إلى حماية قبيلته في المتيجة. و كان ذلك بمثابة مؤامرة لإخراج الزائرين الذين أصبحوا غير مرغوب فيهم و الذين تطلّب سلوكهم تجاه السكان النظر إليهم كمحتلين عسكريين

ثالثا : عروج يغتال سليم التومي

بينما كان عروج يستعد للحرب اذ أحس بفتور اعترى سالم التومي الذي أحس بفتور اعترى سالم الذي خشي أن ينتزع منه الحكم فأخذ يتجسس على عروج لقتله والاستراحة من المنافسة وانفراد بالامر بدون منازع واحضر أخاه خير الدين ونظم الإدارة وجند الجنود وكون جيشا قويا اخضع بفضله القبائل العربية والبربرية المجاورة للجزائر خصوصا منها قبيلة الثعالبة.

لما استقر عروج بالجزائر ودرس موقعها ظهرت له أهميتها وحصانتها ومناعة المرفأ فعزم على الاستقرار بها نهائيا وأخذ الحكم بيد من حديد واتخذها عاصمة له، فرأى أنه لا ينتسب له الأمر إلا بتمهيد أهل الجزائر ، فقتل سليم التومي بعد الدخول عليه في الحمام واغتاله بمعاونة خادمه وصاحب أسراره رمضان شاوش واتهم الغير بقتله .

لكن أهل الجزائر تفطنوا لذلك وشعروا انه يريد الاستيلاء على الحكم والطمع في الإمارة، فتمردوا بالاستعانة بالجيوش الاسبانية ومؤامرة يحي ولد سالم التومي الذي فر إلى وهران عند الإسبان خوفا على نفسه من القتل مثل أبيه فوجهه والي وهران إلى الماركيكو ماريس إلى اسبانيا حيث التقى الوزير الأول الكاردينال خيمينيس الذي وعده بإعطائه النجدة ورده إلى عرش أبيه، وكان سبب مقتل سالم التومي هو التهمة التي وجهها إليه عروج بكونه تحالف مع العدو، والحقيقة أن سالم التومي حس بالخطر عندما نزل عروج وأخوه بالجزائر وعزما على اتخاذها مركزا لهم .

ثار أهل الجزائر على عروج وحاولوا أن يضعوا يحي بن سالم التومي على عرش والده ودبروا مؤامرة مع الجيوش الاسبانية المرابطة في الصّخرة واتفقوا مع القائد بان يحرقوا سفن عروج في المرسى وحينها يخرج الجنود الأتراك لإخماد النار ويغلقون الأبواب عليهم ويقتلون عروج وينصبون ابن سالم التومي، لكن عروج تفطن لمكيدتهم ولم يشعرهم بذلك ومترقبا الفرصة حتى ينتقم منهم ويأخذ بالثأر ودام تربصه مدة بينما كان أعيان البلد مجتمعين في المسجد لأداء صلاة الجمعة قتل منهم اثنين وعشرين وأصحابه متفرقون في المسجد قصد شد عضده[٧]وبذلك أصبح عروج منفردا بالحكم لا يزاحمه فيه أحد فتفرغ للحكم وبويع له بالملك وأعطي لنفسه لقب السلطان.

II. ثورة السويد

كانت ثورة السويد من بين الثورات التي دامت أكثر ما يزيد عن القرنين حيث قامت بغرب الجزائر المشهورة عند العامة (بثورة المحال) عندما احتل الأتراك الجزائر كانت لهم إمارة بتنس تمتد من قبر الرومية شرقا إلى مصب نهر الشلف غربا قرب مستغانم فقد شاركوا في حروب بني مرين مع بنو زيان .

ولم نجد واحدا من المؤلفين ذكر هذه القبيلة في قائمة القبائل المتعاونة هذا لا يمنع أنهم ثاروا على الأتراك وحاربوهم ما يزيد عن القرنين ولما عجزوا اختاروا الجلاء بدلا من الاستسلام.[vi]

وهي ثورة قبيلة سويد العربية ضد العثمانيين وقاعدة هذه الثورة مدينة تنس البحرية التي كانت قاعدة لحكم سويد قبل مجيء العثمانيين حيث كان لسويد علاقة بشيوخ الثعالبة الذين كانوا يحكمون متيجة ومدينة الجزائر عند مجيء العثمانيين، حيث تأثروا لامقتل سليم التومي على يد عروج ويبدوا أن العثمانيين قد أجلوا سويدا عن أماكنهم في تنس بعد وفاة زعيمها حميد العبد وقد سجل الشعر الشعبي هذه العلاقة بني سويد والعثمانيين فالشاعر ابن السويكت السويدي روى المعارك التي دارت بين قومه وبين العثمانيين. كما تحدث عن جلاء قومه وبمعنى آخر عن هزيمتهم وذلك في قوله:

الترك جاروا والسويد أعقابهم طافحين *** والترك شاربين كهبال في سلطة

اداكم الطمع في مطافل امتمقين *** اسويد ما يطيعوا الترك قتاله

يصف الترك بالجور والحماقة والطمع والوحشية قتالة لذلك لم تطعهم سويد الشجاعة حيث يذكر المؤرخون أنه كان لسويد ماض حافل وكانت تحكم مساحة شاسعة تمتد من مستغانم غربا إلى العطاف شرقا ثم امتد نفوذها إلى ضواحي مدينة الجزائر وكان لها قادة يحكمون إمارة تنس، فالوجود العثماني إذن كان يعني نهاية هذا المجد والثروات التي تنتجها الأراضي الخصبة التي كانت تحت أيدي السويد ، اختلف المؤرخون في سبب هذا التمرد ولا شك أن رؤساء القبيلة كان لهم التصرف المطلق في أقطاعاتهم وكان الملوك كثيرا ما يخضعون لهم رفضوا الخضوع للأتراك وقد لخص أحد شعرائهم سبب هذا التمرد واختيارهم للاستمالة في المقاومة في بيتين فقال:

قالو الترك ندوا(شلف) لا وهمة *** قلنالهم جذورنا في الواد

ما نتركوش(شلف)حتى تطيب الصمة *** ومانهدوش العقبةعلى الأولاد[vii]

كانت الحرب بينهم وبين الأتراك في أول التمرد سجالا وأكثر المعارك كانت في موطنهم الأصلي(الشلف)